

البعد الاستراتيجي في فكر الإمام البخاري والإمام الشافعي

سامر الشحنة البستاني

باحث

أفرزت لنا الأمة الإسلامية منذ نشأتها ببعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الكثير من العلماء في نواحي الحياة كافة، على الصعيد الديني والديني والإنساني، كيف لا، والمنهج الإسلامي قائم على العلم والفكر ويشجع عليهما، وقدم لنا كثيراً من العلماء الذين مازلنا نستظل بنهجهم وعلومهم منذ قرون، لكن الحقيقة ليس كل العلماء بالسوية نفسها فيما بينهم فقد كانوا متفاضلين، فأهل العلم درجات بالعطاء والجهد والنوعية، فمن هؤلاء العلماء من كان تأثيرهم واضح لا يغيب عن ذهن أي مسلم أو طالب علم ولا يستغنى عن علمهم الذي استمر مرجعاً لطلاب العلم والعلماء.

ما استوقف الباحث ودعاه للتأمل هو البعد الاستراتيجي لإمامين جليلين ملأ علمهما الدنيا وشنّف مسامع الكبير والصغير، وهما الإمامان البخاري والشافعي .

أنشأ الأول مدرسة ومنهجاً في الحديث النبوي والسنة النبوية .

وأنشأ الثاني مدرسة ومنهجاً في الفقه وأصوله وضوابطه .

إن المنهج المتبع لكلا الإمامين كان يعتمد التفكير الاستراتيجي، لأنه كان يستشرف المستقبل، فالتأمل لضرورة هذين المنهجين يلحظ كيف التزم الغالبية العظمى من المسلمين بما ذهب إليه كل منهما، وما تصوره من رؤى مستقبلية، ورسالة، وغايات .

الإمام البخاري :

" هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه، ويكنى بأبي عبد الله ويلقب بإمام الحديث أو أمير المؤمنين بالحديث .

والده هو اسماعيل كان من كبار المحدثين من تلاميذ الإمام مالك روى الأحاديث عن حماد بن زيد والإمام مالك وأبي معاوية وغيرهم من علماء عصره لقي عبد الله بن المبارك واستفاد منه وذكر الإمام البخاري ترجمة والده في التاريخ الكبير وكذلك الحافظ ابن حبان في كتاب الثقات .

ولد الامام البخاري في بخارى المدينة المعروفة بخراسان في ١٣ من شوال سنة ١٩٤ هـ، وتوفي في ليلة عيد الفطر وقت العشاء عام ٢٥٦ هـ في قرية خرتنك من نواحي سمرقند .

توفي والده إسماعيل وكان البخاري صغيراً، فعادت كفالته إلى أمه ولما بلغ سن التمييز مال قلبه إلى حفظ الأحاديث وتحقيقها والعلوم الإسلامية، كيف لا، وقد ورثه من والده العظيم وكان عمره آنذاك عشر سنين أو أقل كما ذكر محمد ابن أبي حاتم الوراق¹.

كان البخاري منذ صغره نبياً ذكياً وحافظاً، حصل مرة وهو في بداية طلبه للعلم أن كان في حلقة أحد المحدثين الكبار وهو العلامة الداخلي، فذكر "الداخلي" إسناد أحد الأحاديث، وأخطأ في أحد رجالات السند، فصوّب البخاري له السند، وكان عمره آنذاك أحد عشر سنة.

برع البخاري بسبب حفظه ونباهته،² في تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها ومعرفة علل الحديث والاطلاع على أحوال رواه، ومعرفة عدالتهم وضبطهم وأمانتهم وصدقهم ومعيشتهم ومسكنهم ومولدهم ووفياتهم ولقائهم فيما بينهم، ومقارنة الأسانيد بعضها ببعض ومعرفة اتصالها وانقطاعها والبلوغ بالفنون الحديثية إلى أسمى مكانتها واستنباط المسائل من الأحاديث وجمعها ومقارنتها بالآيات القرآنية².

ولما تمكّن مما هو متاح في بلده، بدأ ترحاله في أرجاء العالم الإسلامي³ ليُكمل علومه الحديثية والحصول على ضبط أكبر من خلال اللقاء المباشر للصحابة والتابعين وتابع التابعين لإضفاء مزيد من الموثوقية. لذلك كان من منهجه أخذ الحديث من أقصر مصدر وأقل رجالات السند ما أمكن.

كل هذه الصفات هي التي جعلت الإمام البخاري يرتفع إلى طبقة كبار الأئمة الذين كانوا قد سبقوه في الزمان.

البعد الاستراتيجي في عمل الإمام البخاري:

لاشك أن الذي قدمه الإمام البخاري من مجهود في مجال الحديث وعلومه كان عظيماً لذلك صنف العلماء صحيحه (الجامع الصحيح) بأصح الكتب بعد كتاب الله تعالى وسبب ذلك الدقة التي سار عليها والضوابط والشروط التي وضعها لتدوين الحديث في ذلك الكتاب وتأتي أهمية الحديث النبوي في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم وهي التي فسرت القرآن ونقلت لنا أقوال وأفعال الرسول صلى الله عليه

¹ المباركفوري، للعلامة الشيخ عبد السلام، سيرة الإمام البخاري، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1422 هـ

² مرجع سابق.

³ طاف نواحي خراسان من مرو وبلخ وهراة ونيسابور والري وجبال خراسان وبلده بخارى وما جاورها من سمرقند وطشقند وغيرها ارتحل إلى الحجاز مكة والمدينة والطائف وجدة وبعدها إلى البصرة والكوفة وبعدها إلى بغداد ثم إلى الشام وبعدها إلى مصر وبعدها إلى الجزيرة - المناطق العليا بين نهري دجلة والفرات -.

وسلم وأرست لنا قواعد الدين وكما نعلم أن القرآن نقل إلينا بالتواتر ودون وكتب بالمصاحف وتكفل الله بحفظه: **إِنَّا نَحْنُ نُحْفِظُكِ وَإِنَّا لَمُحَافِظُونَ** (الحجر).

أما السنة فنقلت إلينا عن طريق الصحابة الذين لازموا الرسول صلى الله عليه وسلم ونقلوا حركاته وسكناته وكل تفاصيل حياته وتسلسلت الرواية منهم إلى التابعين وتابع التابعين إلى أن دوت بالكتب ولاشك أن علماء المسلمين وضعوا علم (مصطلح الحديث) بضوابطه وشروطه لضمان سلامة النقل كي لا يشوبه أي تدليس أو وضع، فكانوا رواداً ومبدعين في هذا المجال، وهكذا حفظت السنة بضوابط وترتيب منقطع النظر بجهود العلماء.

حقيقة يجب علينا أن نعلم أن الذي فعله الإمام البخاري ليس مجرد تأليف كتاب، أو أنه برع في علم معين، أو بحث معين فقط، بل إن الذي قدمه، له بعد استراتيجي، ولم يكن عشوائياً، فكان لعمله رسالة؛ هي حفظ السنة وضمان نقلها بطريقة صحيحة، وحدد أهدافاً عمل من أجلها وهي: جمع أكبر عدد من الأحاديث الصحيحة ووصولها للمسلمين جيلاً بعد جيل للاستفادة منها من منهج وفكر واستنباط وأحكام... الخ.

والذي ساعد البخاري على تحقيق أهدافه امتلاكه لنقاط قوة كثيرة، منها امتلاكه قوة حافظه كبيرة، وهمة عالية، وقدرة مادية على الأسفار في البلاد لسماع الأحاديث وأسانيدها لأن أباه أورثه مالاً وكان لا يعمل به، بل أوكل غيره به مضاربة لكي يتفرغ للعلم، مستفيداً من استقرار البلاد الإسلامية آنذاك وازدهارها وتشجيعها للعلم والعلماء والباحثين. فالرسالة السامية التي أراد البخاري أن يطبقها لم تكن محض كلام وشعارات بل كما أشرنا وضع لها الأهداف وسار عليها ضمن رؤى مستقبلية، وخطوات ثابتة بعيدة عن العشوائية، فبعد أن حفظ الأحاديث بأسانيدها والعلوم المحيطة بها لم يدونها في صحيحه مباشرة، بل ألف كتاباً في الجرح والتعديل وهو (التاريخ الكبير)، ومن عظيم نفع هذا الكتاب أخذه العالم إسحاق ابن راهويه وأدخله على حاكم خراسان آنذاك وقال له: (ألا أريك سحراً). يحوي هذا الكتاب أخبار رجال السند الذين تسلسلت الأحاديث عن طريق روايتهم لها وفي ذلك ضمان لسلامة الطريق الذي نقل الحديث عبرها، وبعد درايتته بالرجال، أصبح الطريق معبداً أمام الإمام البخاري، ليؤلف كتابه العظيم (الجامع الصحيح) وهو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، الذي استغرق جمعه خمسة عشر عاماً، وبعد انتهائه منه أعاده ودققه ثلاث مرات ليضمن دقة العمل والنقل الصحيح، ومن استشرافه للمستقبل

وليسهل على الدارسين والعلماء من بعده، نظّم كتابه وقسمه وبوّبه على أبواب المواضيع الفقهية وبهذا يُستدل أن الامام البخاري لم يكن محدثاً فحسب بل كان عالماً فقيهاً .

ومن المواقف التي ترينا النظرة الاستراتيجية للبخاري تلك التي حصلت معه في إحدى أسفاره البحرية والتي تعرف فيها على شخص، وصدّقه، وأمن جانبه وأخبره بأن معه صرة تحوي ألف دينار¹ وفي اليوم التالي ادعى هذا الرجل أن صرة بداخلها ألف دينار سرقت منه فأخذو يفتشون الركاب فألقى الإمام البخاري الصرة في البحر وعندما نزلوا إلى البر سأل الرجل المفتري الامام البخاري ماذا فعل بالمال؟ ولماذا فعل ذلك؟ مستغرباً!! فأجابه البخاري: (يا جاهل ألا تدري أنني أفنيت حياتي كلها في جمع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وعرف العالم ثقتي، فكيف كان ينبغي لي أن أجعل نفسي عرضة لتهمة السرقة، وهل الدرّة الثمينة – الثقة والعدالة – التي حصلت عليها في حياتي أضيعها من أجل دنائير معدودة؟) فهنا ظهرت النظرة والثاقبة للإمام البخاري، وهي أنه يقوم بجمع السنّة بهذه الدقة والناس تعرف أمانته وثقته بالنقل، فإن سمعوا بأنه طعن بأمانته لم يأخذوا حديثاً واحداً منه، فيُحرم الناس من هذا العمل النافع والهام جداً.

إذاً لم يطرح الامام البخاري أفكاراً دون أن يطبقها، بل رسم منهجاً وطبقه خير تطبيق، فوضع رسالة واضحة المعالم، وحدد أهدافاً وسار بعمله بكل جهد وتفانٍ حتى وصل لغايته وحقق أهدافه التي روت ظمأ العلماء والباحثين إلى يومنا هذا وستستمر إلى قيام الساعة.

الإمام الشافعي²:

ولد بغزة بالشام سنة ١٥٠ هـ، من أب قرشي مطلبي وهو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف فهو يلتقي مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف . وأمه فهي من الأزدي، نشأ الشافعي من أسرة فقيرة كانت مشردة بفلسطين توفي أباه وكان صغيراً فانتقلت أمه به إلى مكة خشية أن يضيع نسبه الشريف، وقد ولد ذا نسب رفيع شريف ولكنه عاش عيشة الفقراء إلى أن استقام عوده، والنشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل الناشئ ينشأ على خلق قويم ومسلّك كريم إن انتفت الموانع ولم يكن ثمة شذوذ.

1 الدينار الذهبي يساوي 4.25 غرام ذهب. أي أن الألف دينار يساوي 4250 غرام ذهب فتصور حجم المبلغ!
2 أبو زهرة، العلامة الشيخ محمد، الشافعي، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية ١٩٧٨ م.

ظهر على الشافعي منذ مقتبل عمره المعية وذكاء وبدا ذكاؤه الشديد في سرعة حفظه له ثم اتجه بعد حفظه القرآن الكريم إلى استحفاظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان حريصاً عليها ويستمع إلى المحدثين فيحفظ الحديث بالسمع ويذهب إلى الديوان يستوعب الظهور ليكتب عليها (المراد الأوراق الديوانية التي كتب في باطنها وترك ظهرها أبيض) وهذا يدل على فقره آنذاك إذ لا يمتلك ثمن الورق . ومع استحفاظه لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وحفظه لكتاب الله تعالى اتجه إلى التصفح في العربية ليبعد كل البعد عن العجمة وعدواها التي أخذت تغزو اللسان العربي لاختلاط الأعاجم في المدائن والأمصار، وقد خرج في سبيل هذا إلى البادية ولزم " هزيل " وكانت أفصح العرب ويظهر أنه أقام في البادية أمداً طويلاً فتمكن من اللغة والفروسية والرمي .

طلب الشافعي العلم في مكة على من كان فيها من الفقهاء والمحدثين، وبلغ شأواً عظيماً حتى أُذن له بالفتيا، إلا أن همته في طلب العلم لم تقف به عند حد، وقد وصل إليه خبر إمام المدينة مالك رضي الله عنه وكان ذلك في وقت انتشر اسم مالك في الآفاق وتناقلته الركبان وبلغ شأواً من العلم والحديث، لكنه لم يأت المدينة حتى استعار الموطأ من رجل بمكة وقراه، وتقول الروايات أنه حفظه، وذهب الشافعي إلى مالك يحمل معه كتاب توصية من والي مكة .

وبهذه الهجرة أخذت حياة الشافعي تتجه إلى الفقه بجملتها وتم ملازما الإمام مالك حتى وفاته سنة ١٧٩ هـ، ولما مات مالك رضي الله عنه وأحس الشافعي أنه نال من العلم أشطراً، وكان إلى ذلك الوقت فقيراً، اتجه لعمل يتكسب منه، بما يدفع حاجته ويمنع خصاصته، وتولى عملاً بنجران، فأقام العدل ونشر لواءه . وبعدها قدم إلى بغداد وهو في الرابعة والثلاثين وتعلم ودرس فقه العراقيين ومن أشهر من درس عندهم الإمام محمد بن الحسن تلميذ الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان .

عاد الشافعي إلى مكة وأخذ يلقي دروسه وفي هذه الفترة التقى به الإمام أحمد بن حنبل، وقد أخذت شخصية الشافعي تظهر بفقه جديد لا هو فقه أهل المدينة وحدهم ولا فقه أهل العراق وحدهم، بل هو مزيج منهما وخلاصة عقل المعني أنضجه علم الكتاب والسنة وعلم العربية وأخبار الناس والقياس والرأي ولذلك كان من يلتقيه من العلماء يرى فيه عالماً، هو نسيح لوحده . بعدها قدم الشافعي بغداد للمرة الثانية وله طريقة في الفقه لم يسبقه بها أحد، ثم رحل إلى مصر وبقي فيها حتى توفاه الموت في آخر ليلة من رجب سنة ٢٠٤ هـ وقد بلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً .

البعد الاستراتيجي في عمل الإمام الشافعي :

لاشك أن عصر الإمام الشافعي كان عصر ازدهار في المجال العلمي والفكري والفقهية لكن نظرة الإمام الشافعي أن الفقه الإسلامي مرن وتتبدل الأحكام الفرعية الفقهية مع تبدل الأزمنة والأمكنة، استناداً للقاعدة الفقهية (لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان)، وهذا التغير يتطلب اجتهاداً من العلماء للوصول للأحكام بطريقة صحيحة ومتوافقة مع مقاصد التشريع فبناءً على ذلك أراد أن يسهل على المجتهدين ويرسم لهم طريقاً ومنهجاً للاستنباط وفق الضوابط والشروط، وتمثل ذلك الفهم بعلم أصول الفقه الذي يُعدُّ الإمام الشافعي أول من أُلّف في ذلك الفن ولحقه العلماء في ذلك من بعده، وكانت رسالته جعل الفقه علم له أصول وضوابط، وبعد أن رسم رسالته حدد لها هدفاً هو: **قدرة العلماء اللاحقين على الاجتهاد ضمن أسس متينة ومرتبطة ومنظمة على مر العصور.**

امتلك الامام الشافعي نقاط قوة كثيرة ساعدته على تحقيق هدفه وهي وصوله إلى قدر كبير من العلم واكتساب الكثير من المهارات من قرآن وحديث وفقه ولغة وفصاحة وبيان... الخ، مع أنه عانى من ضيق المعيشة في بداية طلبه للعلم إضافة إلى المحنة التي حلت به عندما اتهمه مبعوضون له بالتخطيط لقيام بثورة ضد العباسيين، لكن علاقته بالإمام محمد بن الحسن الشيباني – وكان قاضي القضاة عصر هارون الرشيد – ساهمت بتبرئته من هذه التهمة، إضافة لكثرة الفرق والآراء والأفكار في زمانه وعلى رأسها أفكار المعتزلة، التي أدت لنزيف الوقت معهم بالمناقشات والمناظرات .

والذي يتابع عمل الشافعي يرى فيه نظرة ثاقبة وبعداً استراتيجياً عندما رأى اتساع رُعة العالم الإسلامي، وتعدد الملل والنحل، والأفكار والمناهج، إلا أنه وبرؤيته النابعة من حكمة عظيمة بتغير الأزمان والأماكن، خاف على ضياع الأسس والمنهج المتبع للوصول للأحكام الفقهية، فعكف على رسم منهج أرسى فيه قواعد وضوابط وأسس علم جديد هو (علم أصول الفقه)، فكان أول إنتاج له في ذلك المنهج؛ كتاب الرسالة في أصول الفقه، وهو أول كتاب في أصول الفقه، إضافة لكتب أخرى فرعية في الأصول قام بتأليفها، وعند انتقاله من بغداد إلى مصر أُلّف كتاب الأم، وفيه تفاصيل الأحكام الشرعية، ومراجعة لكتاب الرسالة، حيث أعاد النظر في بعض الموضوعات، لذلك قيل: مذهب الامام الشافعي القديم، ومذهب الامام الشافعي الجديد، لإعادة النظر في بعض الموضوعات والأحكام. ويُلاحظ تغيير اجتهاد الامام بانتقاله من بغداد إلى مصر، في بعض المسائل، وهذا إن دلَّ، فإنه يدل على أمرين: أحدهما أن الامام

الشافعي لا يجد حرجاً بأن ينقض ويتراجع عن اجتهاده السابق باجتهاد آخر يجده خيراً منه، كما نشاهد في واقعنا عن بعض العلماء يتشبهون ويتربصون برأيهم عنجهيةً واستكباراً ولو بدا لهم أن الحق في غير اجتهادهم. والثاني ليؤكد مرونة التشريع وأن الأعراف تتبدل من بلد لآخر والعرف مصدر من مصادر التشريع (مصدر ثانوي)، مما يجعلنا نتقبل ونستوعب اجتهاد العلماء الآخرين ولا ننكر عليهم، ونقدر الاختلاف بين العلماء في المسائل الفقهية ونتيقن أن اختلافهم رحمة، فالنتيجة حصول الأمة على ثروة فقهية كبيرة ومرونة بالتشريع.

الخاتمة:

في نهاية المطاف ينوه الباحث إلى أنه عندما نطلق على أحد من العلماء (إمام)، فهي ليست مرتبة دينية أو كهنوتية، بل مرتبة علمية كما في وقتنا الحاضر عند اطلاقنا كلمة دكتور، بروفيسور. وقد أشار الباحث إلى أهمية العمل الذي قام به كل من الإمامين البخاري والشافعي وعملهما ومنهجهما المحفز لكل طالب علم للحدو حدوهمما، فلا يقول أين هم وأين نحن في العلم؟ صحيح أنهما من الأئمة الفريدين ومن الذين سبقوا عصرهم بعطائهم وبعدهم الاستراتيجي لكن لا يستصغر أحد نفسه وكل واحد فينا عنده امكانيات، إذا دعمها وزودها بالعلم والمعرفة استطاع أن ينتج ويساهم في أعمال جوهرية، تدوم طويلاً ويستفيد منها الأجيال، وإن الأدوات ووسائل الاتصال الحديثة تساعد الباحثين وطلاب العلم على البحث وجلب المعلومة وتطويرها بأسهل وأسرع من التي كانت في عصرهم، فكانوا يقطعون مئات الكيلومترات أجل حديث أو للتأكد منه أو لبحث مسألة فقهية. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوْلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ) (الترمذي).